سورية - سورية

يحق لسورية ان تباهي بأن لديها واحدة من أقدم الحضارات

جاك فولي - كاليفورنيا

«بينما هو في رحلته، وصل قرب دمشق، وفجأة، سطع عليه ضوء من السماء، سقط على الارض وسمع صوتا يناديه، ياسول، يا سول: لماذا تضطهدني؟» الفصل التاسع من الانجيل.

رجعت وزوجتي آذل لتوّنا من زيارة الى سورية استغرقت عشرة ايام (من ١٨ تشرين الاول الى ٢٨ تشرين الاول). نزلنا في مدينة دمشق. زرنا كذلك حماه وحلب الجميلة والتي تبدو كمدينة اوروبية حيث الاذان اكثر ما يثير الرهبة في النفوس. شاهدنا كثيرا من الآثار، والقيت محاضرة وقرأت الشعر في جامعة دمشق. وبما ان ابني شان يتكلم اللغة العربية فكنت استطيع ان اتحدث مع الكثير من الناس: المفكرون، الطلاب، اصحاب المحلات والادلاء السياحيون. رغم ان الجميع كان يعرف أنني وزوجتي اميركيان، لم يكن لدينا مشكلة من اي نوع، فالسوريون شعب مضياف وشعرت بالراحة والامان والترحيب في كل وقت وحين. في الحقيقة، كان لدى السوريين الذين قابلتهم مخاوف بأن اكون خائفا اوغير مرتاح. كانوا يتمنون ان اشعر بالامان في زيارتي لبلدهم. (كان لدى اصدقائي في اميركا المخاوف نفسها أيضا). نصحني البعض ألا اذهب الى سورية. قال لي احد السوريين وهو يقدم الشاي مبتسما «نحن لسنا ارهابيين» . وسمعتها خطأ «نحن لسنا سانحين» وضحك الجميع.

نزلنا في فندق العامر وهو فندق مريح في دمشق. وكان صوت الاذان من الجامع المجاور يوقظنا صباح كل يوم تقريبا في الساعة الخامسة، الآن، وبعد ان عدت من رحلة طويلة استغرقت ٢٤ ساعة، اجد نفسي مستيقظا كل يوم في الخامسة صباحا وافكر بسورية. لم يعد جسمي الى نظامه الطبيعي حتى الآن حيث اشعر بالجوع في اوقات غريبة، واشعر فجأة بالتعب الشديد. لا اعرف بالضبط ماذا اقول عن سورية فهي تفوق الوصف. كنت في سورية «زائرا بالمصادفة». فلقد زرتها لان ابننا كان فيها في منحة «فولبرايت». وقد رتب لي المحاضرة في الجامعة، بالتعاون مع المركز الثقافي الاميركي. كما استضافنا هو وزوجته كيري (والتي تتكلم اللغة العربية ايضا) وارشدانا خلال زيارتنا. التقيت بشان وكيري في حي الشعلان الشعبي حيث يسكنان ويتنقلان بأريحية في شوارعه الضيقة. يمشون بسرعة بينما يسلم عليهم اصحاب المحلات والجيران. وعندما عرف الناس باننا من اهله، استقبلونا بحرارة.

دعانا احمد بركات، وهو صديق شان وباحث واستاذ في الجامعة، الى العشاء في الليلة الاولى.

كانت البداية رائعة فالطعام الذي قدمه لنا، وهو من صنع والدته كان رائعا ككل ما اكلناه في سورية لاحقا. (لقد كان للطعام لذة خاصة في هذه الرحلة). حضر العشاء اختا احمد، مها وريم، وصديقه عز الدين وهم جميعا يتحدثون اللغة الانكليزية بشكل جيد، فقد كنت قادرا على التكلم معه عن الادب والشعر. قصيدة «الارض الخراب» هي قصيدة شعبية وذات مغزى في الادب العربي. كنا نتحدث عنها بالاضافة الى مواضيع اخرى. كان بيت احمد جميل جدا ومفروشا بعناية وتملؤه الكتب. بينما جلسنا في الشرفة لنحتسي الشاي ونتناول الحلويات، تحدثنا عن الترجمة. قلت مبتسما «الترجمة كالخليلة، كلما كانت أجمل كانت اقل إخلاصا».

يعتقد ان اليونانيين هم اول من اطلق على سورية هذا الاسم. وفي العصر الروماني، اطلق اسم سورية على الجزء من الامبراطورية الرومانية الواقع بين مصر جنوبا والاناضول شمالاً.

ولهذا، فإن تاريخ سورية يتحدث ايضا عن لبنان والاردن واللذين اطلقت عليهما هذه التسمية في مطلع هذا القرن، وفلسطين التي اطلق عليها هذا الاسم في القرن الثالث عشر قبل الميلاد. رغم ان اسم سورية كان يطلق على بلاد الشام وان الدولة السورية قد نشأت من القرن العشرين، يحق لسورية ان تباهي بان لديها واحدة من اقدم الحضارات في العالم، ففي مثل هذه الحالة، للتاريخ حضور كبير.

صديق ابني وصاحب شقته، بسام، هو رجل متحضر ومثير للاهتمام. كان لطيفاً جدا مع ابني شان وهو اب محب لاولاده الثلاثة. امضى بسام مدة في ولاية اوكلاهوما في اميركا حيث درس الانكليزية واكتشف متعة الكاوبوي. اخبرني بانه يعرف اوكلاهوما ولكن لم يسمع بموسيقا اوكلاهوما. بسام ليس مفكرا، بل تاجرا و يهتم بالتاريخ.

يشكل بسام جسرا بين الغرب و الشرق. قال لي: إن المسيح سيظهر في دمشق في نهاية العالم والتي ليست بعيدة جدا، وربما ليس في حياته او حياة ابنائه.

بالنسبة للاميركيين، حركة المرور وقيادة السيارات غريبة جدا، فالمسافة بين السيارات اصغر بكثير مما نحن معتادون عليه، وحركة المرور سريعة جدا.

زرنا سورية فقط لمدة عشرة ايام، تزامن جزء من الزيارة مع شهر رمضان المبارك حيث اختفت كل تلك الحركة المرورية. قال لنا احد السوريين: إن رمضان عند المسلمين هو مثل عيد الميلاد عند المسيحيين، ترى الناس ودودين، يساعد بعضهم بعضا، إنه شهر رائع.

إن بعض اجمل الآثار الرومانية في العالم موجودة في سورية. زرنا تدمر، مدينة التمر، وهي مدينة الملكة زنوبيا والتي جعلت من تدمر امبراطورية مستقلة، منتزعة السيطرة على مصر من الرومان، متوغلة في اراضي الاناضول، والذي كان فيه الدمار الحتمي لبلدها.

بينما كنا في تدمر، كانت هناك تحضيرات لزفاف نجل الملك الاسباني، حيث ارتدى الصبية زي الجنود الرومان وانتشروا في كل مكان مع ادواتهم المختلفة كالخيام وغيره احتفالا بتلك المناسبة.

وفي هذا الجو البهيج والمدرج المزدان، صعدت الى خشبة المسرح ورقصت بحياء.

بعد ان عدنا الى دمشق، زرنا المدينة القديمة حيث تجولنا في سوق الحميدية وهو تجمع هائل للمحلات التجارية. يملك بسام محلاً في ذلك السوق وقد انضم الينا في تجوالنا. شاهدنا هناك جامعا صغيرا في المكتبة الظاهرية والذي لايتجاوز الغرفة الواحدة إلا أنه كان يشع روحانية. زرنا بعد ذلك الجامع الاموي الجميل، وفي ساحته الكبيرة تجد الناس يصلون ويمشون كما تجد حلقات الذكر والدراسة.

زرنا بعد ذلك مكانا آخر يتمتع بالروحانية وهو مقام الشيخ خالد النقشبندي في ركن الدين. يجري ابني شان بحثا عن الشيخ خالد، وهو من ابرز الشخصيات في القرن التاسع عشر. القائم على مقام الشيخ خالد قدم زوجتي الى امه البالغة ١٠٠ سنة من العمر.

حضر شان لكي القي محاضرة في جامعة دمشق. كان الحضور طلابا متقدمين في اللغة الانكليزية وكانوا يتقنون اللغة بشكل كامل. القيت مقطعا من مقالة عن الادب الاميركي كنت قد كتبتها خصيصا لذلك وختمت المحاضرة بقصيدة حوارية قرأتها انا وزوجتي.

كان المسؤولون في الجامعة يخشون ان حضور رجل اميركي قد يدفع الطلاب لطرح اسئلتهم بغضب عن السياسة الاميركية وقد حضرت بعض الاجابات لمثل هذه الاسئلة، ولكن لم يتم طرح اي شيء من هذا القبيل. لقد استمتع الطلاب كثيرا بالمحاضرة والقصيدة، بل أن البعض طلب مني ان ادرس في جامعة دمشق. قالت لي احدى الطالبات أنها لم تفهم القصيدة بشكل كامل ولكنها كانت تحس بها.

قالت: إن القصيدة كانت «قوية» ولكن «عنيفة».

لايسعني ان اذكر كل شيء عن زيارتي لسورية الآن، لان ذلك يحتاج الكثير من الصفحات. كل ما رأيناه يستحق الذكر كحديقة المتحف الوطني، وفنان في حماه ارانى اعماله بسرور، وتواعير حماه العظيمة، والمشهد الرائع لقلعة حلب وقلعة الحصن بتحصيناتها الكبيرة واماكنها المخصصة لرش الزيت المغلي على الغزاة، وحقول القطن التي ذكرتني بحقول القطن في ولاية الاباما الاميركية، ومعلولا حيث قرأ الدليل صلواته باللغة الآرامية، البيوت الريفية التي تشبه بيوت النحل والتي تشاهدها على امتداد الطريق، وعباد الشمس.. تناولت في دمشق اطيب مثلجات تذوقتها في حياتي، وفي حلب اطيب وجبة رئيسة هي كباب كرزي وهو يجمع بين الحلو والمالح.

كنا نتناول كل يوم الفطور نفسه في فندق العامر، كان هناك الكروسان، الخبز العربي، انواع مختلفة من الجبن ،المربى اللذيذ، الفول ، البيض المسلوق والمقلي، الزيتون الاسود والإخضر، التفاح الاخضر، وعصير البرتقال وهو الفطور التقليدي في سورية.

ذات صباح، احترقت ذراعي بالبخار واسرع الخادم باعطائي الثلج لاضعه على الحرق، وعندما رأت فتاة سورية ذلك، اتت الى طاولتي، ونصحتني بلغتها الانكليزية الممتازة ان اضع بعض المرهم وعندما شعرت بانني لااعرف من اين اشتري المرهم، ذهبت الى صيدلية مجاورة واشترته لي.

عرضت عليها ان ادفع ثمنه، لكنها رفضت وقالت: اريدك ان تستمتع بزيارتك الى سورية. على الرغم من ذلك، اردت ان اقدم لهاشيئا كانت تهتم بالادب ولذلك قررت ان اعطيها قرصا ليزريا فيه قصائدي واعمالي الادبية. كنت اخشى ان تجدها صعبة، فحتى بعض الاميركيين يستصعبونها.

تحدثت معها عن قصائد المجموعة الشعرية وكنت متفاجئا بانها فهمت كل شيء. اخبرتني بانها من حمص، واخبرني ابني ان حمص تشتهر بفتياتها الجميلات. لم يكن لدي اي فكرة عن ذلك ، ولكنني كتبت عن هذه الحادثة وعن الفتاة الحمصية التي قابلتها.

الى سامية التي قدمت لي المرهم عند الحرق:
وبعد،
تجلسين بصبر
وأنا اتكلم طويلاً بين السطور..
عن الجوانب المتعددة والمعقدة لكتاباتي ..
تقاطعينني
فقط لتقولي تعليقاتك الذكية
اخبرني ابني
ان النساء في مدينتك
يمتزن بالذكاء والجمال
اجبته نعم
ارى ذلك.

سميت هذه المقالة «سورية- سورية» لأنني اردت ان اظهر الجوانب المتعددة لسورية. هناك الكثير من الاشياء التي لم يتسن لي أن اكتب عنها. مشاعري تجاه هذا البلد قوية ومتعددة الجوانب، و بالتاكيد فإنني سأزورها مجددا. عدنا الى اميركا بعد رحلة طويلة وشاقة، وكانت هذه الرحلة قد تركت بصماتها العميقة في نفوسنا. وفي ليلتنا الاخيرة في سورية، قدم لي احمد مجموعة شعرية كتبتها الشاعرة السورية لميس عمر، اخترت منها هذا المقطع:

أردت ان اكتب ذكرياتي على صخرة مهجورة
أردت أن أرسم صورة قلبي ، لكن فجأة يزغ الفجر
أردت أن أفعل الكثير، لكن أتاني ظل غريب وادخلني
في دوامة مستمرة
وجعل من ليلي الصامت صباحا مشرقاً
لقد رفعت بآمالي الى السماء وجعلتني اولد من جديد.

ترجمة: احمد بركات - شان فولي

Jan 22 04 04:53p American Cultural Center +963-11-3321456 p.2